حرب المناورات: ردع الجنون السعودي في سورية

■ عامر نعيم الياس*

قبل أسابيع، اشتكى وزير الدفاع الأميركي آشتون كارتر من دور الحلفاء في الحرب على «داعش». فهم «لا يفعلون ما يكفي، أو لا يفعلون شيئاً على الإطلاق». وفي السياق ذاته نشرت صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» الأميركية معلومات حول ما سمّته «الإحباط المتزايد لبعض مسؤولي البنتاغون من أن بعض الدول الشريكة والمجموعات الإقليمية تدعم جهود محاربة داعش بالاسم فقط».

بالتوازي مع ما سبق، أطلقت السعودية وعدد من الدول العربية والإسلامية مناورات «رعد الشمال». وهو ما رأى فيه المراقبون تحضيراً لتدخّل عسكري سعودي في سورية وفق معادلة دأب وزير الخارجية السعودي عادل الجبير على تكرار نغمتها وهي«إسقاط الأسد إما بالحل السياسي أو التدخل العسكري على الأرض». واليوم، تعلن السعودية رسمياً وللمرّة الأولى استعدادها للتدخل العسكري البرّي في سورية، بالتزامن مع معلومات روسية حول استعدادات تركية لتدخل برّي في سورية. فهل يحصل التدخل بعد «انهيار المعارضة السورية في حلب» وفق أحد عناوين صحيفة «ليبيراسيون» الفرنسية؟

لكي تتدخل السعودية في سورية يلزم وجود ما يلي:

ـ تدخل عسكري برّي تركي في سورية يدعّم الموقف السعودي، كون تركيا تملك حدوداً مع سورية، فيما السعودية لا تملك أيّ حدود مشتركة معها. وهذه الحالة هي عكس الحالة اليمنية تماماً حيث الحدود السعودية ـ اليمنية المشتركة سمحت للرياض بالتدخل من دون الحاجة إلى التحالف مع تركيا.

ـ التدخل يجب أن يكون عبر قرار من التحالف الدولي لمحاربة «داعش» الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية، وهو أمرٌ ممكن أن يحصل لكن في سياق الحرب على التنظيم الإرهابي، من دون أن يعني ذلك تفويضاً مباشراً لمحاربة الدولة السورية والأكراد. فهل هذا ما تريده كلّ من أنقرة والرياض؟

ـ منذ بدء غارات التحالف الدولي فوق الأراضي السورية عام 2014، فإن التسريبات الإعلامية والمعلومات المتوفّرة أشارت إلى وجود تفاهم ضمني سوري ـ أميركي برعاية عراقية لضمان أمن طائرات التحالف الأميركي فوق الأراضي السورية، وهو أمر أدّى إلى عدم وجود أي تعارض أو صدام بين سلاحي الجوّ السوري والأميركي حتى اللحظة. وعلى الرغم من إنكار الولايات المتحدة وجود أيّ تواصل مع الحكومة السورية مباشر أم غير مباشر، إلا أن مجريات الأمور تشي عكس ذلك. فالدولة السورية رحّبت بعمليات التحالف الأميركي «إن كان يستهدف داعش»، فيما أعلنت أن التدخل السعودي أو التركي في سورية سيعتبر عدواناً يتوجب مقاومته.

ـ التدخل العسكري الروسي في سورية وفّر مظلةً جوّية ردعية تحمي الأجواء السورية من تدخل حلف الناتو أولاً وقبل كل شيء. وتقطع الطريق تلقائياً على أيّ تدخل عسكري جوّي من جانب قوات تحالف عربي خليجي على شاكلة ما يحصل في اليمن. وهو ما أبقى احتمالاً وحيداً لتغيير موازين الحرب في سورية عبر التدخل البرّي المباشر. لكن هذا التدخل دونه عقبة كبرى، تتمثل بالتصادم مع القوات الروسية وحلفائها في مناطق العمليات المشتركة. فكيف يمكن لتركيا أو السعودية أن تهاجم الجيش السوري والحلفاء في حلب التي تشكل أساس التدخل العسكري السعودي ـ التركي، إن حصل، والقوات الروسية الجوّية والخبراء الروس يعملون وينسّقون على الأرض؟ ما هو ردّ فعل موسكو حيال مقتل مستشاريها المرافقين للجيش السوري في حال قتلوا بقصف سعودي أو تركي؟ هل يؤمّن الأطلسي الغطاء لقتل الروس في سورية؟ وهل تستطيع واشنطن ضبط ردّ الفعل الروسي؟

ـ بالنسبة إلى الرياض فإن التدخل البرّي، في حال لم ترد تركيا التدخل، يمكن أن يأتي من الحدود الأردنية ـ السورية، أي من المنطقة الجنوبية لسورية، وهذا يستلزم تنسيقاً مع الكيان الصهيوني ينقض مفاعيل تفاهم ضمني بين «تل أبيب» وموسكو عقب تدخل الأخيرة في سورية، كانت مفاعيله واضحة على الأرض. فهل تضحّي «تل أبيب» بالتفاهم مع روسيا لمصلحة دعم مغامرة سعودية في سورية عبر الحدود الأردنية؟ ألا يعني ذلك تغيّر الوضع عند مثلث درعا القنيطرة ريف دمشق؟ وفي الأساس هل يحتمل الأردن فتح حدوده لغزو جنوب سورية؟

ـ التصادم الإيراني ـ السعودي سيخلط الأوراق على الصعيد الدولي قبل الإقليمي، وسيؤدّي إلى ارتدادات على مستوى التوازن الذي يحاول أوباما رسمه في المنطقة، وهو أمر لا يمكن لواشنطن أن تسمح به في الوقت الحالي على الرغم من الافتراق الأميركي ـ الإيراني في ما يخصّ الملف السوري. وفي هذا السياق ترى «إندبندنت» البريطانية أن «القوات التي سترسلها المملكة إلى سورية قد تجد نفسها في مواجهة مع قوات إيرانية». وتضيف أنّ «إرسال هذه القوات لن تقتصر تداعياته على الحرب في سورية بل ستمتد إلى المنطقة بأسرها».

ـ تجربة اليمن، والعامل «الإسرائيلي»، والوجود الروسي، ومنظومة التسليح الحديث للجيش السوري، فضلاً عن وجود الجيش السوري كمؤسسة لا كما اليمن تعرّض الجيش للانقسام، فضلاً عن العامل الكردي وأولوية الحرب على «داعش» المتواجد في سورية. كل ما سبق يجعل من احتمال إقدام أنقرة والرياض على الدخول إلى سورية مجرّد وهم، وهنا علينا أيضاً ألا ننسى أن الرئيس الأميركي باراك أوباما لم يقدم على عمل عسكري في سورية في آب من عام 2013، نظراً إلى العوامل السابقة التي كان مستثنياً منها الوجود العسكري الروسي المباشر في سورية.

ـ ما هي التحضيرات اللازمة لنشر 150 ألف جندي سعودي (وفق تقرير «CNN») في سورية وقبيل ذلك نقلهم إلى تركيا أو الأردن؟ ألا يلزم لنشر هذه القوات وتجهيزها فترة زمنية تتراوح بين 3 و6 أشهر على أقل تقدير؟ هل يصبح التدخل ذي جدوى بعد ستة أشهر من الآن؟

في السياسة، لا يجوز إسقاط احتمال والجزم نهائياً باحتمال أو سيناريو لذلك. وبالتوازي مع زيارة الملك البحريني إلى روسيا أعطى الرئيس الروسي فلاديمير بوتين أوامره لوزير الدفاع بإطلاق مناورات عسكرية روسية في المنطقة العسكرية الجنوبية من روسيا. وهي منطقة على تماس مع الشرق الأوسط. حرب مناورات حتى اللحظة تهدف إلى الردع عن الجنون الذي سيعمّ المنطقة إن حصل الغزو السعودي لسورية.

* كاتب ومترجم سوري

اعتراف أميركي بانتصار بوتين... وبان كي مون يحترف التحيّز

ما زالت مواقف الأمم المتحدة حيال قضايا عدّة، يشوبها الغموض، إذ إن أمين عام الأمم المتحدة بان كي مون غالباً ما يبدي «قلقه» فقط إزاء ما يجري في الشرق الأوسط، وغالباً ما يتحيّز إلى الدول التي تشارك في التآمر ضد شعوب هذه المنطقة، ليكتمل عقد التآمر، من أروقة القرار في عدد من الدول، إلى الإعلام، فمنظّمات من شأنها ـ في الحالات العادية ـ أن تكون راعية للسلام لا للحرب.

في هذا الصدد، تطرّقت صحيفة «إيزفيستيا» الروسية إلى التصريحات التي أدلى بها سكرتير عام الأمم المتحدة بان كي مون، والتي اتّهم فيها روسيا بعرقلة مفاوضات جنيف بين الأطراف السورية. إذ ردّت المتحدّثة الرسمية باسم الخارجية الروسية، ماريا زاخاروفا على انتقادات بان كي مون في شأن عرقلة مفاوضات جنيف بين الأطراف السورية، وتدهور الأوضاع الإنسانية في سورية. وقالت: «عن قصد أو عن غير قصد، أصبح السكرتير العام للأمم المتحدة بان كي مون متورّطاً في الحملة الإعلامية التي تشنّها وسائل الإعلام الأجنبية الهادفة إلى تشويه الدور الذي تلعبه روسيا في تسوية الأزمة السورية، خصوصاً دور القوات الجوّية الفضائية الروسية، والمزاعم حول سقوط ضحايا بين المدنيين نتيجة الغارات التي تنفّذها... كنّا دائماً وما زلنا ننطلق من أن تصريحات مسؤول المنظمة الدولية يجب أن تتناسب ومنصبه الذي يحتّم عليه أن يحافظ على الموضوعية وعدم الانحياز. ولكن هذا لم يحصل هذه المرّة».

إلى ذلك، قال روجر كوهين في صحيفة «نيويورك تايمز» الأميركية، إن الرئيس الروسي حقّق نصراً فعلياً في سورية، وأصبح ذلك ممكناً بفضل عجز إدارة الرئيس الأميركي باراك أوباما وتشتتها، هي التي جعلت من سورية مقبرة دامية للمعتقدات الأميركية.

ИЗВЕСТИЯ
WWW.IZVESTIA.RU

«إيزفيستيا»: روسيا تتّهم بان كي مون بالتحيّز

تطرّقت صحيفة «إيزفيستيا» الروسية إلى التصريحات التي أدلى بها سكرتير عام الأمم المتحدة بان كي مون، التي اتّهم فيها روسيا بعرقلة مفاوضات جنيف بين الأطراف السورية.

وجاء في المقال: ردّت المتحدّثة الرسمية باسم الخارجية الروسية، ماريا زاخاروفا على انتقادات سكرتير عام الأمم المتّحدة في شأن عرقلة مفاوضات جنيف بين الأطراف السورية، وتدهور الأوضاع الإنسانية في سورية. وقالت ماريا زاخاروفا في ردّها على تصريحات بان كي مون: «عن قصدٍ أو عن غير قصد، أصبح السكرتير العام للأمم المتحدة بان كي مون متورّطاً في الحملة الإعلامية التي تشنّها وسائل الإعلام الأجنبية الهادفة إلى تشويه الدور الذي تلعبه روسيا في تسوية الأزمة السورية، خصوصاً دور القوات الجوّية الفضائية الروسية، والمزاعم حول سقوط ضحايا بين المدنيين نتيجة الغارات التي تنفّذها».

وكان بان كي مون في خطابه أمام مؤتمر الأوضاع الإنسانية في سورية المنعقد في لندن، وفي تصريحاته لصحيفة «فايننشال تايمز» البريطانية قد حمّل عملياً روسيا مسؤولية تعرقل مفاوضات جنيف بين الأطراف السورية وتدهور الأوضاع الإنسانية في سورية.

وقالت زاخاروفا في ردّها: «كنّا دائماً وما زلنا ننطلق من أن تصريحات مسؤول المنظمة الدولية يجب أن تتناسب ومنصبه الذي يحتّم عليه أن يحافظ على الموضوعية وعدم الانحياز. ولكن هذا لم يحصل هذه المرّة. لذلك نؤكّد من جديد أنّ هدف الغارات الجوّية التي تنفّذها طائرات القوات الجوّية والفضائية الروسية في سورية، هو القضاء على التهديدات الإرهابية في سورية. ولم تقدّم لنا أيّ جهة ما يثبت سقوط ضحايا مدنيين نتيجة هذه الغارات. ونذكّر في الوقت نفسه بأنّ جميع دول الائتلاف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة تتجاهل طلباتنا المتكرّرة في شأن التحديد المشترك للأهداف. من ناحية ثانية نلاحظ أنّ ما تسمّى المعارضة المعتدلة، لم تتوقف عن القيام بعمليات عسكرية في مختلف أنحاء سورية، ولكن وسائل الإعلام الغربية لا تشير إليها».

بحسب رأي بان كي مون، كما نشرته صحيفة «فايننشال تايمز» يوم 5 شباط الجاري، إنّ توقف مفاوضات جنيف بين الأطراف السورية له علاقة برفض روسيا وقف دعمها لتقدّم قوات الأسد باتجاه حلب. وإنّ ازدياد دعم روسيا نظام الأسد «سلبيّ للغاية» في عملية التسوية، وهو ما يهدّد وقف إطلاق النار.

وأضاف بان كي مون: «إنّ استمرار الغارات الجوّية والعمليات المشروعة ضدّ الإرهابيين، أدّت في الوقت نفسه إلى سقوط ضحايا مدنيين وتدمير مبانٍ. ولكن بدلاً من مناقشة المسائل المهمة غرقنا في قضايا جانبية مثل موضوع مَن ندعو إلى حضور المفاوضات ومن نرفض دعوته وهو الموضوع الذي أثارته السلطات السورية».

وقد ردّت زاخاروفا على هذه الاتهامات، فقالت إن المعارضة الراديكالية التي يحرّكها المموّلون الأجانب هي بالذات من طرح شروطاً مرفوضة للبدء بالمفاوضات، بعكس الوفد الرسمي للسلطة ووفد «المعارضة الوطنية».

وقالت المتحدثة باسم الخارجية الروسية: «نحن ندعو إلى أن تكون مفاوضات جنيف مبنيّة على ضرورة تنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي المرقّم 2254، وسوف نلتزم بهذا خلال اجتماع اللجنة الدولية لدعم سورية الذي سيُعقد في ميونيخ يوم 11 شباط الجاري، وندعو الجميع إلى تقييم الأوضاع من دون تحيّز».

The New York Times

«نيويورك تايمز»: بوتين انتصر فعلياً في سورية

قالت صحيفة «نيويورك تايمز» الأميركية في مقال كتبه روجر كوهين، إن الرئيس الروسي حقّق نصراً فعلياً في سورية، وأصبح ذلك ممكناً بفضل عجز إدارة الرئيس الأميركي باراك أوباما وتشتتها، هي التي جعلت من سورية مقبرة دامية للمعتقدات الأميركية.

وأضاف كوهين أنّ سياسة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في سورية واضحة بشكل كاف، وتتلخّص في تعزيز موقف حكومة الرئيس السوري بشار الأسد والاستمرار في قصف مواقع «المعارضة» حتى الاستسلام وقطع أيّ محاولات للغرب في تغيير النظام باستخدام «الثرثرة» الدبلوماسية في جنيف، ومنع تغيير الوضع في سورية.

ويرى الكاتب أن ما يقلق في كلّ هذا أنّ سياسة الرئيس الروسي في سورية يصبح من الصعب عدم تمييزها عن سياسة الرئيس الأميركي باراك أوباما، فإعلانات الولايات المتحدة «مجرّد كلام»، وفعلياً، من يطلب الموسيقى في سورية هو بوتين، ويرجع ذلك إلى عدم وجود سياسة واضحة لأوباما.

ويشير الكاتب إلى مدينة حلب التي أصبحت برأيه محاطة بشكل كامل بالقوات الحكومية. ويضيف كوهين: «مدينة حلب باتت في عزلة، وسبب ذلك تشتّت إدارة أوباما».

ويقول: «التصريحات المتكرّرة من قبل حكومة الولايات المتحدة التي تقول إن سورية لا تشكّل عنصراً أساسياً في مصالح الولايات المتحدة القومية وإنه يجب بأيّ طريقة تجنّب أيّ حرب جديدة في الشرق الأوسط، أدّت إلى تحوّل السياسة الأميركية إلى سياسة يتبعها بوتين، ولموافقة ضمنية مع هدف موسكو التي وبثمن قليل ستهزم داعش أيضاً».

ويرى الكاتب أن العذاب السوري لأوباما هو ما أنتج الهجمات الإرهابية في باريس وسان برناردينو. وأنه (العذاب السوري لأوباما) ساهم بشكل كبير في انهيار محتمل لنواة الاتحاد الأوروبي، الذي يعود أعضاؤه مرّة أخرى إلى مراقبة الحدود الوطنية بسبب أزمة اللاجئين.

ويؤكد الكاتب أن سورية أصبحت عاراً على إدارة أوباما، وفشلاً بحجم يغطّي على كلّ الإنجازات التي حقّقها الرئيس في السياسة الداخلية. سورية أصبحت مقبرة دامية للمعتقدات الأميركية.

ويضيف كوهين: «نقطة التحوّل كانت مع الأسلحة الكيماوية، أوباما تسبّب في تقويض الثقة في كلمة أميركا، وتسبب في غضب مستمر من الدول السنّية الحليفة، وتسبّب في تعزيز موقف الأسد وفتح الطريق أمام بوتين لتحديد مصير سورية».

وقال كوهين إنه فات الأوان لانتظار أيّ تغييرات في سياسة أوباما في سورية، ومع ذلك، يمكن للولايات المتحدة أن تزيد من عدد اللاجئين السوريين لتخفف بطريقة أو بأخرى الأزمة في أوروبا.

وأضاف: «إذا سمحنا للخوف بإملاء السياسات، فسينتصر الإرهابيون، أما بالنسبة إلى بوتين، فقد انتصر فعلياً في سورية».

صحافة عبريّة

معركة السكاكين و«الربيع العربي»

كتب شاؤول مشعال ودورون موتسا في صحيفة «هاآرتس» العبرية:

انتفاضة السكاكين الفلسطينية التي بدأت في تشرين الأول 2015 وضعت حدّاً لفترة متواصلة من الهدوء الأمني. في الأشهر تشرين الأول حتى كانون الأول قتل 31 يهودياً وأكثر من 120 من الفلسطينيين. وفي تشرين الثاني ازدادت عمليات إطلاق النار إلى جانب عمليات الطعن والدهس. ورغم استمرار العنف فإن «إسرائيل» تمتنع عن اعتباره انتفاضة. ومصدر رفض «إسرائيل» اعتبار أحداث الأشهر الأخيرة انتفاضة عنيفة، القناعة أو الرغبة في إعادة الاستقرار.

هناك نوعان من الادّعاءات حول الأسباب التي أدّت إلى موجة العنف الحالية وما هو مطلوب لإعادة الوضع لسابق عهده. النوع الأول ينسب التدهور إلى التحريض المنظّم من قبل السلطة الفلسطينية الذي انضمّت إليه أيضاً «الحركة الإسلامية» في «إسرائيل» والتي استغلت مسألة الأماكن المقدسة في القدس من أجل تأجيج السكان.

إن مواجهة الظاهرة تستوجب بحسب هذا الادّعاء علاجاً موضعياً للجهات السياسية المسؤولة عن الواقع الحالي، الأمر الذي أدّى إلى إخراج «الحركة الإسلامية» خارج القانون.

النوع الثاني يلقي المسؤولية بالتدهور على الجمود السياسي وغياب الحوار بين «إسرائيل» والسلطة الفلسطينية. بحسب ادّعاءات كهذه، فإن غياب العملية السياسية هو المسؤول عن ضياع الأمل بمستقبل أفضل، والخروج من دائرة العنف يكمن في استئناف المفاوضات السياسية.

صحيح أن التحريض من قبل السلطة الفلسطينية ساهم في خلق أجواء العنف، الأمر الذي يشجّع شباناً فلسطينيين على الإضرار بـ«إسرائيل». ومع ذلك لا يمكن فهم موجة العنف في الأشهر الأخيرة في سياقها المحلي فقط، إذ إن للأمر ارتباطات إقليمية واسعة.

صحيح أن الجمود السياسي يميّز علاقات «إسرائيل» والفلسطينيين في السنوات الأخيرة، ولكنه في هذه السنوات بالذات ساد استقرار السلطة والهدوء الأمني في مناطق السلطة الفلسطينية، حيث شعر الناس بالرفاه الاقتصادي نسبياً.

ما الذي يفسّر إذن اندلاع العنف في الأشهر الأخيرة؟ لقد أشرنا منذ 2010 إلى أن البنية الفلسطينية تسير باتجاه نوع من الانتفاضة. استخدمنا في حينه مصطلح «انتفاضة بيضاء» والتي كان لها مكان في الوعي الجماهيري. كان ادّعاؤنا أنّ السلطة الفلسطينية ستضغط على «إسرائيل» بدعم من المجتمع الدولي، وأن الوسائل ستكون أعمالاً شعبية مثل التظاهرات والاحتجاجات والمسيرات ومطالبة تحقيق السيادة الفلسطينية.

كان من المفترض أن تكون هذه انتفاضة، وعلى العكس من سابقاتها «الحمراوات» تلك التي اندلعت في كانون الأول 1987 وأيلول 2000، سترتكز على النشاط المدني غير العنيف؛ إذ ستجد «إسرائيل» صعوبة في مواجهتها.

منذ نشر المقال في «هاآرتس» في 2010/10/22، لم تحدث «انتفاضة بيضاء» ولكن تدهور الأمر إلى «معركة بيضاء» أدارتها السلطة ضدّ «إسرائيل». إذ تحولت مؤسّسات الأمم المتحدة في إطارها إلى ساحة مواجهة، الأمر الذي وصل للذروة عام 2011 عند التصويت في الهيئة العمومية على قبول فلسطين عضواً في مؤسسات الأمم المتحدة.

«المعركة البيضاء» عكست، ليس فقط الصدام بين «إسرائيل» والفلسطينيين، إنّما أيضاً الموافقة الصامتة على مسائل أمنية واقتصادية مختلفة. منذ ذهاب ياسر عرفات ومجيء أبو مازن بدلاً منه حظيت السلطة الفلسطينية بمباركة القيادة «الإسرائيلية». وبين الطرفين تشكّلت علاقات خفية وشجاعة على شكل تعاون بين الأعداء.

هذا النمط ساعد «إسرائيل» في تحقيق طموحها في استمرار الوضع القائم جغرافياً، وبثمن معقول. إذ كانت السلطة مسؤولة عن إدارة حياة السكان المحليين. وفي الوقت نفسه بقيت «إسرائيل» مسؤولة عن الأمن، واستمرار الاستيطان في الضفة. واستطاعت السلطة الفلسطينية إقامة سلطة ذاتية في المجالين الاقتصادي والمدني والتخلّص من نتائج الانتفاضة الثانية، التي أدّت إلى سقوط قطاع غزّة في يد «حماس».

«المعركة البيضاء» التي بادرت إليها السلطة ضدّ «إسرائيل» في الساحة الدولية تحوّلت إلى ساحة مواجهة متّفق عليها بين الطرفين. وكانت لها قوانين لعبة واضحة. وهذا مكّن السلطة والتي خافت من تراجع شرعيتها داخلياً بسبب التعاون مع «إسرائيل». مكّنها من الظهور كمحافظة على طموح الشعب الفلسطيني للسيادة والدولة. بالمقابل ساعدت هذه التفاهمات «إسرائيل» في مواجهة الضغط من أجل استئناف المفاوضات، الأمر الذي مكّنها من اتهام السلطة بعدم الشرعية. هذا دفع «إسرائيل» إلى الطلب من أبي مازن بالاعتراف بالهوية اليهودية لـ«إسرائيل» كشرط لاستئناف المفاوضات.

المعركة المتبادلة التي أدارها الأطراف تحوّلت بالنسبة إليهما إلى أمر حيويّ على خلفية الأحداث والتغيّرات في الشرق الأوسط. «الربيع العربي» الذي اندلع في 2010 أعاد طرح مسألة المقاومة الشعبية والمطالبة بإحداث تغييرات سياسية ثورية. لم تمرّ السلطة و«حماس» بما مرّت به الأنظمة في تونس وليبيا وسورية ومصر والبحرين. هكذا تحوّلت المعركة الفلسطينية غير العنيفة إلى استراتيجية مفضلة. وتهدف إلى حرف طاقات المقاومة لدى الجيل الفلسطيني الشاب عن القيادات المحلية وتوجيهها باتجاه «إسرائيل»، مع السعي إلى الإبقاء على التفاهمات الهادئة بين الطرفين.

صحيح أن القيادة الفلسطينية في رام الله وفي غزة قد بقيتا وتجاوزتا موجة العنف التي اجتاحت العالم العربي، لكن «الربيع العربي» تخلخل إلى بنية العلاقات بين «إسرائيل» والفلسطينيين وألحق ضرراً بالتفاهمات الهادئة بين الطرفين، وانتفاضة السكاكين التي اندلعت في أواخر عام 2015 حطّمت منطقة المقاومة السابقة. والذي اعتمد أنماط عمل غير عنيف. تحوّل الشبان الفلسطينيين إلى حاملي لواء المقاومة ووضعوا القيادة الفلسطينية جانباً. الجيل الفلسطيني الذي ولد بعد «أوسلو 1993» يحمل روح المقاومة التي ميّزت شبّان «الربيع العربي» ومصادره الاجتماعية والثقافية والطبقية.

لم يكن «الربيع العربي» نتاج احتجاج سياسي خالص، لقد تركّز الاحتجاج ضدّ القيادات المركزية المسيطرة منذ سستينات القرن الماضي واستهدف الطريقة السياسية ـ الاقتصادية كهدف للتغيير.

انتفاضة السكاكين الحالية ترضع من مصادر مشابهة لمصادر الاحتجاج الاقتصادي العربي. تطوّر تعاون اقتصادي بين «إسرائيل» والسلطة الفلسطينية في السنوات الأخيرة وكان ملائماً للطرفين، وبالنسبة إلى الفلسطينيين فإن الازدهار ساعد في التقليل من أهمية الجمود السياسي وتأثيره والإبقاء على الحياة الاقتصادية في الضفة الغربية.

بالنسبة إلى «إسرائيل»، فإن التعاون كان جزءاً من السعي إلى التهدئة الأمنية عن طريق رفع ثمن الخسارة الاقتصادية في حال اختار الفلسطينيون طريق العنف، إذ زاد في السنوات الأخيرة عدد العمال الفلسطينيين العاملين في «إسرائيل». وأصبحوا بمئات الآلاف واهتم اقتصاديون «إسرائيليون» بمشاريع فلسطينية مثل مدينة «روابي الجديدة».

مع الازدهار الاقتصادي الذي استفاد منه كل من القيادة ورجال الأعمال، زادت الفجوة بحق الشبان الفلسطينيين المتعلّمين الذين ظلّوا خارج الدائرة الاقتصادية، بما في ذلك القدس الشرقية التي تعاني أحياؤها منذ سنوات من الأهمال وغياب البنى التحتية والاستثمارات. وفي وقت توجّه غضب الشبان في العالم العربي ضدّ الأنظمة، فإن غضب الشبان الفلسطينيين وُجّه ضدّ «إسرائيل».

تقرير

لماذا تهرب العائلات من عاصمة «الخلافة» إلى «أرض الكفار»؟

كتبت صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» الأميركية: يجد السوريون أنّ مغادرة الرقة تزداد صعوبة باطّراد، لكنّ الضربات الجوّية وارتفاع معدّلات التضخّم، يجعلان الحياة هناك لا تطاق. حتى أنّ أولئك الذين يصطفون مع الجهاديين يجدون أنفسهم راغبين في الفرار.

تركّز الخطبة الهادرة على ما يقول المقيمون في الرقة، عاصمة «خلافة داعش» المعلنة ذاتياً في سورية، أنه موضوع متكرّر في صلاة الجمعة: «الهجرة».

قال الواعظ: «ألا تعرفون المخاطر التي تحمّلها مجاهدونا والثمن الذي دفعوه لكي يأتوا إلى هنا، إلى قلب الخلافة؟ وأنتم؟ أنتم تريدون الذهاب إلى أرض الكفّار»، وفقاً لما رواه ستة أشقاء سوريون فرّوا من الرقة في كانون الثاني الماضي.

كانت تلك الخطبة هي الأخيرة التي سمعوها، كما يقول الأشقاء الذين شقّوا طريقهم إلى تركيا بمساعدة سلسلة معقّدة من المهرّبين.

ويقول الشقيق الأكبر، «حمزة»: يلتقط «داعش» الثرثرات في الشارع، وبذلك يعرف عناصره أنّ الناس يريدون مغادرة «أرض الإسلام» إلى «أرض الكفار».

في الفترة الأخيرة، تصبح مغادرة الرقة صعبة ومكلفة على نحو متزايد، ولكن عدداً من السوريين ما زالوا يقومون بالرحلة الصعبة إلى تركيا. وقد تعبوا من المراسيم القاسية التي يصدرها الجهاديون، لكنهم تعبوا أيضاً من ارتفاع الأسعار ومن العيش تحت القصف المستمر، على نحو جعل الحياة صعبة حتى على أولئك الذين يفضّلون حكم «داعش» على حكم الرئيس السوري بشار الأسد.

يقول حمزة، وهو عامل بناء سابق يبلغ من العمر 28 سنة ويعمل الآن خيّاطاً في ضواحي اسطنبول: بالطبع يعرفون (الجهاديون) أن الناس يغادرون مناطق «داعش». إنهم يملؤون جيوبهم بالعمولات من المهرّبين.

لكن قيس، شقيقه الذي ما زال يحتفظ بلحية كثّة مطابقة للطراز الذي تفرضه الجماعة الإرهابية، يتدخّل في الحديث، غاضباً من تلميح شقيقه إلى فساد «داعش».

ويقول متجهّماً: ما دمتَ تحترم حدودهم، فإن وجودهم أفضل من البديل، أفضل بالتأكيد من النظام. معظم أعضاء «داعش» لا يجرؤون على السرقة أو أخذ الرشوة، إذا لم يكن خوفاً من الله، فخوفاً من قادتهم.

يعرض الأشقاء ـ الذين طلبوا استخدام أسماء مستعارة حفاظاً على سلامتهم ـ طيف وجهات النظر المتفارقة عندما يتعلق الأمر بـ«داعش». ويبدو أن حمزة هو الأكثر انتقاداً للمجموعة. ويقول عدنان إنه بدأ يكرههم بعدما شهر مقاتل جهادي أجنبي مسدّساً في وجهه حتى يتجاوزه في طابور قصير ـ إلى حدّ يبعث الضحك ـ في أحد المخابز.

ومثل محاسب دقيق، يزن عامر الإيجابيات المتصوّرة لـ«داعش»، والتي تتضمّن إغلاق بيوت الدعارة وإعادة فرض الزيّ الإسلامي والصلاة، في مقابل كل السلبيات. وما يزال الشقيقان الأصغران، قيس وعمر، ينظران إلى «داعش» بعين التفضيل.

لكنهم جميعاً يتفقون على أن الحياة في الرقة كانت قاسية بطريقة لا يمكن الدفاع عنها. وفي النهاية، كما يقولون، دفعهم التضخم وانعدام فرص العمل، إلى المغادرة. ويقول عامر: عندما جاء «داعش» أوّل الأمر، كان 70 في المئة من السكان سعيدين، و30 في المئة غير سعيدين. الآن أصبح الوضع معكوساً بسبب الضغوط الهائلة التي يضعونها على السكان.

يضيف عامر: في البداية كان الجميع يستطيعون الذهاب إلى أيّ مكان، حتى النساء ما دام معهن مرافق ذكر. واليوم، ليس مسموحاً حتى للرجال بمغادرة مناطق «داعش» إلا تحت ظروف خاصة جداً، مثل السعي للحصول على العلاج الطبّي.

ويقول الأشقاء إنهم ظلوا في الرقة مثلما فعلوا، فيما يعود في جزء كبير إلى أن والدهم كان مريضاً مصاباً بسرطان الغدد اللمفاوية، وكان يريد أن يموت في وطنه، وهو ما حدث كانون الأول. وقد تلقى العلاج في المناطق التي يسيطر عليها النظام. لكن مدخّراتهم جفّت في نهاية المطاف مع الذهاب والإياب، إلى جانب الرعاية الطبية لقيس بعدما تعرّض لحادث سيارة خطير. ثم أنفقوا نقودهم الأخيرة على المهرّبين، وهم يحاولون الآن أن يعلموا ليدّخروا ما يكفي لقطع الرحلة إلى أوروبا، ولو أن ذلك سيعني أن يصبحوا أبعد عن أمّهم وعن شقيق آخر قرّر البقاء في الرقة.

لكن شقيقتهم، حنان، هي الأكثر سعادة بوجودها في تركيا. فقد جلب عليها فشلها في مراعاة الزيّ المناسب في الرقة دفع غرامة قدرها 4000 ليرة سورية، وكذلك 30 جلدة للشقيق الذي جاء ليأخذها. والآن، أصبح الذهاب إلى السوق لشراء الفواكه والخضراوات مدعاة للبهجة مرّة أخرى، وكذلك الوصول إلى الإنترنت، ومشاهدة القنوات الفضائية.

وتقول حنان وهي مسترخية في البيت في منامة تشبه فروة الفهد: كامرأة محجبة بالكامل في الرقة، لا يمكنك حتى أن تري إلى أين أنت ذاهبة. «داعش» سيعاقبكَ على أيّ شيء.

تقول العائلة إن أسعار الفواكه والخضراوات في مناطق «داعش» شهدت زيادة بنسبة خمسة أضعاف، لأن الأسعار مربوطة بالدولار، ولأن «داعش» يصرّ على أن تُدفع بعض الغرامات بالذهب. وعندما غادروا، كان غالون غاز الطهي يباع لأعضاء «داعش» بـ1100 ليرة سورية، أو 3 دولارات، في حين أن السوريين كانوا يدفعون ما لا يقلّ عن ستة أضعاف هذا السعر في السوق السوداء.

مع نهاية شهر كانون الثاني، أصبح سعر الليتر الواحد من البنزين 650 ليرة سورية. وتكاليف وقود الديزل 150 ليرة لليتر الواحد، في حين وصل ثمن الغالون من غاز الطهي إلى 10.000 ليرة سورية، وفقاً لأحد السكان الذي لا يزال يعيش هناك.

أصبحت مغادرة الرقة أيضاً باهظة التكاليف. ففي السابق، كانت كلفة الرحلة إلى تركيا نحو 15.000 ليرة سورية، بما في ذلك أجرة المهرّب عبر الحدود. والآن، ربما يكون ما لا يقل عن ستة مهرّبين مشاركين في الرحلة من مناطق «داعش» إلى المناطق السورية التي يسيطر عليها الثوار العرب أو الأكراد، ثم منها إلى تركيا.

في حالة الأشقاء، وصلت كلفة الرحلة إلى 125.000 ليرة سورية للشخص الواحد (325 دولاراً) أو ما يعادل مجموع أجور ثلاثة أشهر على الأقل من العمل في البناء.

حتى تصل إلى تركيا، رحلت الأسرة أولاً إلى منبج، وهي بلدة يسيطر عليها «داعش» في محافظة حلب الشمالية، واختبأوا في حظيرة للدجاج حتى صباح اليوم التالي، ثم ساروا نحو سبعة كيلومترات إلى أقرب نقاط التفتيش التي يسيطر عليها «الثوار» التابعون لـ«المعارضة من الجيش السوري الحرّ».

يشرح عدنان عن رحلة الهروب: الشخص الأول في سلسلة التهريب لا يعرف الأخير. في كل مرحلة، يكون المهرّب شخصاً محلياً، والذي ينصحك بما تقوله عن وجهتك عند نقاط التفتيش حتى تبدو صادقاً».

وبالنسبة إلى آخرين، ربما تمتدّ الرحلة لفترة أطول. ففي حالة عائلة أبو زهرة، المواطنين من قرية صغيرة في محافظة الرقة، استغرقت الرحلة إلى تركيا 16 يوماً. ويقول أبو زهرة إنه قرّر مغادرة المناطق التي يسيطر عليها «داعش» لأن اثنين من المسلّحين وضعوا عيونهما على ابنتيه بعمرَي 20 و18 سنة، ولأنه خشي من تجنيد ابنه إجبارياً للقتال مع التنظيم التي انضمّ البعض من أقاربه إليه مسبقاً.

ويتذكر أبو زهرة: عندما رزق ابن عمي بابن في الرقة، ابتهج مقاتلو «داعش» لأنه أصبح لديهم «مجاهد» جديد. الشعب السوري هناك عالق بين نارين: النظام و«داعش». إذا سقط نظام بشار الأسد، أنا واثق أن الناس سيملكون الشجاعة لطردهم.

لكن حمزة وأشقاءه يستبعدون هذا السيناريو ببساطة. ربما كان سقوط مدينة الرمادي التي كان «داعش» يسيطر عليها في العراق، مصحوباً باقتراب الفصائل الكردية من عاصمة ما تدعى «الخلافة»، قد رفعا الآمال بأن تحرير الرقة أمر ممكن، ولكن الناس هناك مرعوبون جدّاً ومقموعون جداً بحيث لا يقوون على الثورة. ويقول عدنان: إذا استمرت الأوضاع في التفاقم، فإن هناك فرصة ضئيلة بأن يثور الناس، لكنها تظل فرصة صغيرة حقاً لأن الجميع مرتعبون. كل مَن يقف ضدهم هو كافر. وبالنسبة إلى «داعش»، يكون قطع رأس أيّ أحد سهلاً مثل قول «مرحباً».